الأنساق الثقافية في رواية " مثل زهرة مجففة " لمحمود يعقوب

Cultural consistency in the novel "Like a Dried Flower" by Mahmoud Yaqoub

أ. د. ضياء غني العبودي [1]، * م.م. حوراء شهيد حسين[2]

[1] جامعة ذي قار – العراق [2] مديرية تربية ذي قار - العراق

تاريخ الارسال : 2020-10-23؛ **تاريخ القبول :** 2021-02-26 ؛ **تاريخ النشر :** 2021-05-03

ملخص:

اختارت الدراسة (النسق الثقافي) منهجاً نقدياً للدراسة بوصفه من أهم الآليات الإجرائية في نظرية النقد الثقافي، ولا سيما منظومة المفاهيم عند الدكتور "عبدالله الغذامي"، واستثمار هذا المفهوم في الوقوف على التحولات النسقية الثقافية في رواية "مثل زهرة مجففة" التي احتضنت خفايا، وانساقا ثقافية، واجتماعية، ودينية، وتأثير العادات والتقاليد الشرقية على فئات الشعب العربي؛ من أجل التعمق في نصوصها بدلا من الوقوف على مجرد الحقائق التأريخية والجمالية، على الرغم من كونها رواية حديثة العهد إلا أنَّ هذه الأنساق باتت أشبه برواسب عالقة في تلافيف ذاكرة هذا الشعب أو بعضه . توزعت الدراسة على أربعة محاول حمل المحور الأول العنوان : تهميش الثقافة الإسلامية والقيم العربية ، واشتمل على : 1ـ ارتكاب الموبقات (، الزنا، احتساء الخمرة, عقوق الوالدين)، 2ـ تقزيم الثقافة العربية . أما المحور الثاني بعنوان : النسق الاستعلائي، ويشتمل على : 1ـ الاستعلاء الذاتي، 2ـ الاستعلاء السلطوي . وجاء المحور الثالث بعنوان الأنوثة والذكورة ، وتفرع على شقين : 1ـ نسق فوقية الذكورة / دونية الأنوثة، 2ـ نسق الإنسانية / التساوي، بعدها يطالعنا نسق العنف عنواناً للمحور الرابع واشتمل على : 1ـ العنف الجسدي، 2ـ العنف السيكولوجي، 3ـ العنف النفسي .

وقد طرحت الدراسة مجموعة من الإشكاليات منها :ماذا نقصد بالنسق الثقافي ؟ وماهي أهم الأنساق الثقافية التي امتدت على جسد رواية " مثل زهرة مجففة" ؟ ذلك ما نحاول الكشف عنه في مقدمة الدراسة .

الكلمات المفتاحية: تهميش الثقافة الإسلامية، النسق الاستعلائي، الأنوثة والذكورة، العنف .

Abstract:

The study (The Cultural System) chose a critical approach to the study as one of the most important procedural mechanisms in the theory of cultural criticism, especially the conceptual system of Dr. Abdullah Al-Ghadhami, and investing this concept in identifying the cultural

* **المؤلف المرسل:** thyambc@yahoo.com

systemic shifts in the novel “Like a dried flower” that embraced its mysteries Cultural, social, and religious patterns, and the influence of Eastern customs and traditions on Arab groups. In order to delve into its texts instead of just standing on the historical and aesthetic facts, despite being a recent novel, these patterns have become more like sediments stuck in the memory of this people or some of them. The study was divided into four attempts carrying the first axis, entitled: The marginalization of Islamic culture and Arab values, and it included: 1- Committing transgressions (adultery, drinking alcohol, disobeying parents), 2- Dwarfing Arab culture. As for the second axis, entitled: The superior pattern, it includes: 1- Self-Supremacy, 2- Authoritarian Supremacy. The third axis came under the title of femininity and masculinity, and it was divided into two parts: 1- The pattern of masculinity / inferiority of femininity, 2- The pattern of humanity / equality, then we see the pattern of violence under the heading of the fourth axis and it includes: 1 physical violence, 2 psychological violence, 3 psychological violence.

The study raised a number of problems, including: What do we mean by cultural pattern? What are the most important cultural patterns that spread over the body of the novel "Like a Dried Flower"? That is what we are trying to reveal in the introduction to the study.

Keywords: marginalization of Islamic culture, patronage, femininity and masculinity, violence.

المقدمة :

أنّ مصطلح النسق الثقافي ذا شقين الأول منه (النسق) : هو النظام، والتنظيم الذي يربط مجموعة من العناصر يهبها الأهمية عبر توحيدها؛ لتشكل عنصراً واحداً متميزاً[1]، أما الشق الثاني (الثقافة) فهي :(ذلك الكل المتكامل الذي يشمل المعرفة، والمعتقدات، والفنون، والأخلاقيات، والقوانين، والآراء والقدرات الأخرى، وعادات الإنسان المكتسبة بوصفه عضواً في المجتمع)[2]، ويرى علماء الأحياء أنّ الثقافة لا تتعدى كونها (اكتساب وراثي أو فطري تنتقل إلى الأنسان دون أن يبذل أي جهد)[3]، ويتمخض عن هذين الشقين تركيب (النسق الثقافي) الذي يعد مفهوماً مركزياً في مجال النقد الثقافي، وهو من الظواهر الأدبية التي رافقت ما بعد الحداثة في مجال الأدب والنقد، وقد جاء كرد فعل على المناهج الظاهراتية كالبنيوية اللسانية، والسيمائيات، والنظرية الجمالية (الاستيتقية)، التي تعنى بالأدب باعتباره ظاهرة لسانية شكلية من جهة، أو ظاهرة فنية وجمالية وشعرية (بيوطيقية) من جهة أخرى .

ومن أبرز الفلاسفة المساهمين في بلورة مفهوم النسق في المجال الأدبي " دي سوسير " في دروسه اللسانية عندما ربط اللغة بالنظام، إذ وصف اللغة بنظام من العلامات بعد تركه (النحو المقارن) الذي قضى فيه زمناً من الدراسة والاهتمام البالغ . وقد أغنى الدرس اللغوي اللساني بثنائيات أشبه بالنظام والنسق (اللغة والكلام)، و(الدال والمدلول)، و(الآنية والزمانية)، و(الوصفية والتاريخية)[4]، وقد تبنى الدكتور " عبد الله الغذامي " أنموذج " دي سوسير" إلا أنَّه اختلف عنه اختلافاً جذريا بابتعاده عن فكرة البنية، ورؤيته للنسق في إمكانية استعمله في الخطاب الخاص والعام و يشيع في الكتابات إلى درجة قد يشوه دلالاتها[5]، ومن هنا يعد النسق الثقافي من منظور الغذامي مفهوماً مركزياً في نظريته النقدية يكتسب قيما دلالية، وسمات اصطلاحية خاصة، وهذا

يقتضي إجرائيا (أنْ نقرأ النصوص والأنساق التي تلك صفتها قراءة خاصة، قراءة من وجهة نظر النقد الثقافي أي أنّها حالة ثقافية، والنص هنا ليس نصاً أدبياً وجمالياً فحسب، ولكنّه حادثة ثقافية، فإنّ الدلالة النسقية فيه سوف تكون هي الأصل النظري للكشف والتأويل مع التسليم بوجود الدلالات الأخرى الصريح منها والضمني، والتسليم بالقيمة الفنية وغيرها من القيم الخصوصية التي تلغيها الدلالة النسقية وليست بديلا عنها، بل إنّنا نقول إنَّ هذه الدلالات وما يلتبسها من قيم جمالية تلعب أدواراً خطيرة من حيث هي أقنعة تختبئ من تحتها الأنساق وتتوسل بها لعمل عملها الترويضي الذي ينتظر من هذا النقد أنْ يكشفه)[6].

إن الأنساق الثقافية هي في حقيقتها قوانين / تشريعات أرضية من صنع الأنسان – في مقابل التعاليم السماوية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى في الأديان – وضعها الأنسان لضبط نفسه ولتصريف أموره في الحياة، وهي تعبر عن تصور الإنسان القديم لما ينبغي أنْ تكون عليه الحياة[7]، فالأنساق الثقافية قابلة للتطور شأنها في ذلك شأن كل العناصر حسب مقولة "بارسونز" (الأنساق الاجتماعية مكونة من أجزاء قادرة على التأمل والتفكير أثناء قيامها بأدوارها)[8]، ولابد لأي نسق أن يفي بمجموعة متطلبات منها تكيفه مع بيئته، وتحقيقه للأهداف المنوط بها، وأن يحافظ على الالتئام والانسجام بين مكوناته، ووضع طريقة لدرء الانحراف والتعامل معه، كما ويجب على كل نسق أن يحافظ على وحدته وتماسكه .[9]

وتأسيسا على ذلك يكون النسق عبارة عن بنية متكاملة من العناصر التي تتحدد فيما بينها، و تتفاعل، إذ تعمل متضافرة لتحقق هدفاً عاماً يؤدي ذلك إلى قيام الثقافة في مجتمع معين، وأنّ كل عنصر من هذه العناصر المتكاملة التي يكتسبها الإنسان له خصائصه، ونظامه، وقانونه الذي يحمه، وله مرتبة ودرجة ضمن نسق عام (النسق الثقافي)

المحور الأول:– تهميش الثقافة الإسلامية والقيم العربية :

تُعد الثقافة الإسلامية من ارفع الثقافات العالمية؛ وذلك لقدسيتها المستمدة من دستورها الذي شرعه بارئ السموات والأرض، والتي جاءت لتعضد القيم العربية الأصلية التي إنماز بها سكان شبه الجزيرة العربية مهد الحضارة العربية، وحين تتعرض تلك الثقافة للتهميش بفضل عوامل العولمة وتلاقح الثقافات تتكون ثقافة جديدة بعيدة عن الأصول الإسلامية، والقيم العربية الأصلية هنا ينبري الأديب لرصدها، ومعالجتها، وتوجيهها الوجهة الصحيحة مكونا موضوعاً جديداً، ويخرج للوجود استراتيجية جديدة، فالتشكيلة الخطابية الجديدة لا تؤدي دوراً سلبياً يوقف الزمان ويجمده لعشرات أو مئات السنين، بل تحدد انتظاماً خاصاً بتطورات زمانية، إنّها تطرح مبدأ تمفصل الأحداث الخطابية بمجموعة أخرى من الأحداث والتقلبات [10]، فعندما يقوم الراوي بسرد أحداث ثقافية مخالفة لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، ومخالفة للأعراف العربية الأصلية، فأنّ ذلك لم يأت بمحض الصدفة بل جيء بها؛ لتعبر عن فكرة معينة، أو لتوصيل رسالة معينة، وأنّ نسق التهميش في رواية مثل زهرة مجففة جاء على محورين :

1. ارتكاب الموبقات (الزنا – احتساء الخمرة) :

إنّ ظهور شخصية" ستار" على أنّها شخصية طالما تعودت على ممارسة الفواحش (الزنا ومعاقرة الخمرة) ضمن نسق تتابعي متنامي على مدار حياته ، من بلده الأم (الأهواز) حتى حطت رحاله البلد الغربي "هولندا " يمثل دلالة ثقافية ساعية على تهميش الثقافة الإسلامية الشائعة، والتي كانت سبباً في زعزعة علاقته الأسرية بأخيه: (لم يكن " ستار " على وفاق تام مع أخيه، ربما لعبت نزواته النسائية، المتوالية، الطائشة، دوراً تخريبيا، غير محمود علاقاته مع عائلة أخيه، ... في محيط محافظ، لا يخفى فيه شيء، على الرغم من سرية مغامراته بالطبع)[11]، هذه الممارسات تتصدر حياة "ستار" بعد سفره من بلده نتيجة ممارسات مماثله لابن أخيه : (إنَّ ابن أخيك ألحق أذى بالغاً بعائلتنا .. أذى لا يمكن محوه، حين صبغ وجوهنا بالسواد، وهتك شرف بناتنا)[12]، فأقصاء العائلة من بلدها لم يشكل رادعاً ل(ستار)للكف عن تلك الموبقات بل استمر على نهج ذلك النسق الثقافي الذي صنعه لنفسه، وصار منزله الجديد في الخليج البلد الذي أختاره بعد الإقصاء وكراً للملذات، ومرتعاً للهو والعبث (... يصطحب معه امرأة بدينة، سمراء، تشبه التيس، أمضت سواد الليل برفقته)[13]، وتطور الحال معه واجتمع بأصدقاء يشاطرونه ثقافة التهميش تلك : (كانوا يسرفون في التسلية، ويغدقون على النساء كثيراً...)[14]، بيد أنَّ المدعو "ستار" لم يكف عن ارتكاب المعاصي حتى بعد زواجه ولديه فتاة يافعة، فنراه يعاود إليها مع نادلة مقهى التوليب " نينا" الذي إعتاد أنْ يرتاده عندما استقر به الحال في " هولندا " (في المساء هوت " نينا" إلى طاولته، وانفردت به . سرعان ما وضعت يدها فوق يده، واستجاب لها بابتسامة خرّت من ذؤابتي شاربه .

ثم نهضت لتجلب لهما قنينة شراب بلون الغسق، وصبت لهما قدحين .رفع قدحه أمام عينيه، ونظر في أعماقه، فاختلط عليه لون الشراب ولون الغسق . وما لبث أن سكبه في أحشائه الظامئة دفعة واحدة، كما لو أنَّه صبّه على الرمال . شرب كأساً آخر، ثم آخر ..

كان الغسق يفيض جمالاً، وكان ستار منتشياً وهو يشرب الغسق ..

بعد أن ارتويا، نهضا، وتشابكت أيدهما، وغادرا المقهى معاً ..)[15].

نلحظ فيما تقدم أن الراوي حرص على تقديم سطوة التهميش من قبل الشخصية الروائية "ستار"، وأنّ تلك الأفعال المحرمة في الدين الإسلامي هي في حقيقتها انعكاساً لثقافة تلك الشخصية، لذا عمد الراوي بعد ذلك إلى إظهار رد نسقي مشابه له مع اختلاف في الجنس البشري، وذلك بعرض ثقافة التهميش من قبل الابنة (زهرة) التي سارت هي الأخرى على خطا والدها في ممارسة المحرمات دون رادع ديني أو أخلاقي مع صديقها الذي

تعرفت علية في أروقة الجامعة " شيشي" : (انحنى فوقها ومدّ رقبته ليلامس بها رقبتها . ثم مسح عنقه مسحا خفيفا بعنقها ...ومضى جسده يلامس جسدها لمساً حقيقياً ناعماً...)[16].

وفي نص آخر يروي كيفية معاقرة تلك الابنة للخمرة على مرأى والدها دون أنْ تراه في مراقبة سرية منه إليها: (وقفنا جانبا نراقبها عن كثب . كانت تجلس برفقة صديقيها وفتاة بدينة أخرى . بينما امتلأت طاولتهما بقناني البيرة .

كنا نسترق النظر إليها وهي ترفع الكأس وتريحه بين شفتيها في ثقة وسلاسة وتشرب بهدوء ... حين تمسك بالكأس وترخي جفنيها، في لحظة من الذوبان تلوح له ابنة ليل حقيقة)[17] .

إنَّ سرد الأحداث على نسق تهميش الثقافة الإسلامية، وتحولاته من الأب إلى الابنة لا يتحرك على مستوى الإبداع فحسب، بل على مستوى البرهنة، وإثبات مصداقية تحريم هكذا أعمال، والعواقب الوخيمة التي تلحق بمرتكبها، وهذا عين ما يسعى النقد الثقافي لإدراكه بوساطة قراءة النصوص على وفق الأنساق الثقافية فيها[18]، وتأسيساً على ذلك حاول الراوي أنْ يربط بين حادثتين ثقافيتين بغية ترسيخ النتيجة في نفوس قارئيها .

وإذا عمدنا إلى التشريح النصوصي للشواهد السابقة وجدنا مضمراً نصوصياً / نسقياً، فلو تتبعنا تكرار الألفاظ ما بين ثقافة الأب، وثقافة الابنة، فالمرأة البدينة التي تعود اصطاحبها أعادها الزمن على هيأة صديقة لابنته، وبنات الليل اللواتي طالما تعود أيام الشباب على اصطحابهن تحولت ابنته بعد مدة من الزمن إلى واحدة منهن، وشرب الخمرة من قبلها، فذلك السرد المكرر انطوى على نسق ثقافي مضمر وهو : كما تدين تدان إن لم يكن الموقف نفسه والألم نفسه .

فسرد الأحداث على وفق نسق التهميش انطوى على نسق مضمر فصار علامة ثقافية تجسدت آثارها على مجمل السلوكيات، والتعاملات الاجتماعية، وحتى الفكرية لابنة الشخصية العابثة (ستار)، فالزاني وشارب الخمر لهما جذر ثقافي عميق يرتبط بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، إذ عُدا من كبائر الذنوب، وحرما تحريماً قاطعاً ؛لما لهما من آثار دنيوية، ومن آثارهما التفكك الأسري، وبذلك تكون الدلالة النسقية المضمرة لمجرى أحداث حياة (ستار)، و حياة ابنته (زهرة) المشابهة لحياة والدها التجسيد الواقعي لسبب تحريم الدين الإسلامي لتلك المحرمات فما حُرمت إلا للحفاظ على حياة الإنسان، وكرامته، وصلاح مجتمعه .

2ـ تقزيم الثقافة العربية :

الهوية الثقافية العربية كانت موجودة قبل وجود الدعوة الإسلامية، وامتازت بخطابها الإنساني الراقي، وبقدرتها على التعامل مع مشاكل المجتمع، وإيجاد الحلول الناجعة لها، فالكرم، والمروءة، والشرف هوية العربي الأصيل، والتي أكد عليها الإسلام بعد مجيئه، وعززها فيه، بيد أنَّ تلك الأنساق الثقافية أصابها تحولاً كبيراً بسبب تلاقح الثقافات الناتج عن انفتاح الحضارة العربية على الحضارات الغربية، وازدادت تلك التحولات حدّة في العصور الأخيرة؛

بسبب العولمة التي شهدت معها الشعوب الإسلامية تحولات حضارية، وفكرية، واجتماعية، وأصبحت الإنسان العربي بين محافظ على هويته الثقافية الأصيلة، وبين مستهلك للثقافة الغربية، وتباعاً لذلك شهدت الأنساق الثقافية تحولاً؛ نظرا لطبيعتها القابلة للتحول[19]، وقد ظهر في رواية " مثل زهرة مجففة" هذه الازدواجية النسقية، والتي كانت عبر سياقين :

أ- سياق ثقافي حافظ على الثقافة العربية الإسلامية بعاداتها، وتقاليدها، وسلوكياتها .

ب - سياق نصي قزم فيه الكاتب الثقافة العربية ؛ليرسم به الحياة الثقافية التي عاشتها شخوص روايته .

والاقتباسات الروائية التي جسدت ذلك شخصية " الثعلب " المحامي الذي تعرف عليه بطل الرواية " ستار " كي يرتب له امر تثبيت زواجه في سجلات الحكومة الخليجية؛ لأنَّه لم يتمكن من الحصول على جنسية تلك البلاد: (هنالك جلسا، وشرع " الثعلب " يخبره، وهو لم يزل متمسكا بيده :

<< سبق لي أن عالجت مثل هذه المشكلة . هناك منفذ ضيق في القانون يخدمنا، ونحن نطلق عليه اسم (سكة الحريم)، يسمح لك بأن ترفع طلباً إلى القاضي الشرعي توضح فيه أنك قمت بالاعتداء على هذه الفتاة، وترغب الآن بالتفكير عن خطأك الجسيم بسترها والزواج منها عندئذ تضطر المحكمة، من زاوية إنسانية، لتسجيل زواجكما في سجلاتها . ومن جهتي سأتولى رفع هذا الطلب وتعقبه حتى النهاية >>..

في الواقع أن رجلاً مثل " ستار " قد خبر النساء وعرفهن جيداً، كان قد استوعب روح الفكرة التي تجول في ذهن " الثعلب " حتى قبل أن يستطرد في سردها . ولذلك لم يكد ينتهي من حديثه بعد حتى ثارت الصحراء بين عيني " ستار " ... وصرخ في وجه " الثعلب " بلكنة بدوية خالصة لا تشوبها أية شائبة :

اخجل من لحيتك يا رجل ...)[20].

نجد أن الراوي اختار نسق تقزيم الثقافة العربية بدقة وخبأه تحت قناع جمالي متمثلاً بشخصية المحامي الماكر " ثعلب " متوسلاً بذلك القناع الجمالي أنْ يكون الأداة الفعالة في تمرير جانب التقزيم المخبوء فـ (تحت كل ما هو جمالي هناك نسق مضمر يعمل الجمالي عمل التعمية الثقافية لكي تظل الأنساق فاعلة ومؤثرة ومستديمة من تحت قناع جمالي)[21]، فالحيل التي تعود على استعمالها المحامي لخداع السلطات الخليجية، وتعامله في الغش، والتمويه، وجعل من الزوجين العفيفين مرتكبي فاحشة، وسكوت، وقبول بعض الزبائن ذلك كله ما هو إلا تسليط الضوء على نسق ثقافي دخيل يقوم على تقزيم للهوية العربية الأصيلة الصادقة الواضحة لتحقيق مكاسب شخصية.

وقد يتطور الأمر ويتقمص الفرد الثقافة الغربية بجوانبها كافة، ويتمرد على ثقافته الأم إذ يعدها مقيدة لحريته الشخصية، وهذا ما جسده الراوي في شخصية الابنة "زهرة" التي استبدلت الثقافة الغربية بثقافتها العربية، وراحت تحط من شأنها بعد ما رأت أن والدتها غير راضية عنها بسب مرافقتها لصديقها " شيشي " طوال الوقت :

(يا أمي، نحن الآن نعيش في أوربا وليس في بلادنا المتخلفة، والدراسة هنا تجمع الذكور والإناث معاً، والجميع يعيشون زملاء، يجلسون ,وينهضون، ويذهبون، ويعودون كأنّهم جنسٍ واحد.)[22] .

إن التحول في النسق الثقافي للشخصية " زهرة " أثر سلباً في المنظومة الأسرية لها والمجتمع العربي الذي انحدرت منه، فنجد الأم تذكرها بذلك محاولة منها لإرجاع ابنتها إلى بيئتها العربية :

(والفضيحة التي ستحيق بنا يا " زهرة "، من يتكفل بتصريفها ؟ ... هل جال في ذهنك أنَّك خذلت أسرة تعبت لأجل مستقبلك تعبا لا يمكن مجازاته وتعويضه، وأنَّك تلطخين سمعتها الطيبة بالوحل ..

اسمعي يا أمي، أنا فتاة لست بالخاطئة، وكل ما أمارسه وأفعله شيء طبيعي لا يشذ عن الحياة الطبيعية التي تعيشها الفتيات في هذا البلد ... أنت تعلمين أنَّنا الآن لسنا في العراق أو الخليج أو الأهواز، نحن نحيا ونعيش في بلد حر تحدين فيه أنَّ جميع ما تتحدثين عنه من مسلمات الأمور، بل من الأشياء التافهة التي لا تشغل بال أحد، وأنا فتاة راشدة أعيش هنا شأني شأن أية فتاة هولندية أخرى)[23].

إنَّ البنية الحوارية في النص الروائي السابق منح للشخصيات الحرية في البوح عن أفكارها، ونوازعها الشخصية والإنسانية موظفاً في ذلك المبدأ النسقي في الرغبة والتمرد، فما رغبت " زهرة " في العيش كفتاة هولندية، و تمردها على النسق المعيشي لفتاة العراق، والخليج، والأهواز، وعدم مبالاتها بأسرتها، وما يحدث لهم هو في حقيقة الأمر تقزيم للثقافة العربية الإسلامية .

المحور الثاني :– النسق الإستعلائي :–

عندما يُمن الله على الإنسان بشيء من القوة، والمال يتصور أنَّه ملك زمام الدنيا، ولكنّه عندما يصطدم ببعض الصعوبات، والمشاكل الواقعية يتبين له مدى ضعفه، و يشعر بالدونية لذا يتخفى بهالة يحيط بها نفسه وهو الاستعلاء على الآخر، فإذا ما بحثنا في عقدة الاستعلاء، ودرسنا مدى استمرارها، سنكشف دوما مركب (الشعور) بالدونية متخفيا خلفها بصورة أو بأخرى [24]، معوضاً بذلك ضعفه، وقلة حيلته، وعليه تكون عقدة الاستعلاء ماهي إلا نسقاً ثقافياً يظهره الإنسان ليضمر شعوره بضعفه، ودونيته بين أفراد مجتمعه، وفي رواية " مثل زهرة مجففة " ظهرت تمثلات هذا النسق عبر شقين :

1ـ الاستعلاء الذاتي :

يظهر هذا النسق الثقافي في الشخصية سواء أكانت واقعية أم ورقية عندما يطغى حب الذات الحد الطبيعي حينها تُظهر الشخصية فوقيتها على كل ممن حولها في إطار ثقافي يناهض ثقافة الآخر، ويسير النسق بحبكة متقنة يتأرجح ما بين الظهور، والإضمار، وله القدرة على التخفي دائماً، ويستعمل أقنعة كثيرة، وأهمها قناع الجمالية[25]، وفي روايتنا محط البحث قام الراوي بنسج علاقات متشابكة تمهد لظهور الدلالة النسقية الاستعلائية للشخصية (زهرة) على والديها مشيراً إلى ذلك بالجملة الثقافية التي قالتها حين وصولها " هولندا " :

(هنا العبي يا (زهرة) ما طاب لك اللعب)[26] . ويستمر الراوي في التمهيد لتنامي النسق الاستعلائي للشخصية :

(حاولت (زهرة)فرض شخصيتها على البيت، مستغلة أوضاع الغربة، وإتقانها لغة البلاد الجديدة ... كانت تتصرف أحيانا وكأنها سيدة البيت . أما فيما يتعلق بشؤونها الشخصية، فلم تكن على استعداد لتقَبُل تدخل والديها بأي شأن)[27]. وهكذا بدأ يتولد نسق الاستعلاء الذاتي في شخصية زهرة، والذي هو نتيجة فعلية بحكم ثقافة المجتمع الهولندي الذي عاشت فيه، وأحبته، ورغبت أن تكون منه، وتنسلخ من ثقافتها العربية، وتستعلي على والديها ولا تحب الظهور معهما في مكان عام :

(حينما شرعنا بالخروج للتسوق تذكرت (زهرة)، وسارعت لأسأل والدها عن سبب عدم مرافقتهما لهما، أجابني الرجل غير أن إجابته كانت مرتبكة وغير مقنعة في آن.

استطعت أن أبلور فكرة مسبقة عن هذه البنت، مستمدة من حواري السريع مع والدها عنها .

ربما كانت من النوع الذي يأنف الظهور برفقة الظهور برفقة والدين شرقيين يجذبان الأنظار إليهما بمنظرهما الإعرابي المميز، وسلوكهما الشرقي ..)[28].

إن ترسخ صورة الفتاة المطيعة لوالديها المتمسكة بعاداتها ، وتقاليدها في ذهن القارئ يتولد لدية عند قراءته تلك النصوص الروائية أن هناك ثمة استعلاء من قبل الشخصية (زهرة)اتجاه والديها، ويزداد تيقن القارئ أزاء ذلك النسق عندما يبلغ سلوك الزهرة عنصرا فاعلا في الاستعلاء ؛وذلك حينما تقرر بالانفصال كليا عن والديها، والعيش بمفردها وبرفقة صديقها (شيشي)، بعدما قرر والدها عدم خروجها، ومرافقته مرة أخرى :

(... تمكنت من استعادة هاتفها والاتصال بصديقها في الحال ... وناشدته الإسراع في إخراجها ... أمام عيونهما الكسيرة تبددت كسراب . تأبط ذلك الولد الياباني وصديقه (العضاءة) ذراعيها واصطحباها مغادرين)[29]. وبهذا يتعزز نسق الاستعلاء الذاتي في شخصية (زهرة) حتى صارت رسمياً، وثقافياً شخصية رافضة لسلطة الأب، وقد شخص الراوي هذا النسق بصورة لفظية عبر استنجاد الشخصية بصديقها، وبصورة إشهارية والتي تجسدت بوساطة تأبط الصديق ليدين الفتاة أمام نظر والديها، وصار تراتب النصوص الروائية في تجسيد نسق الاستعلاء هو الأصل الذهني للخطاب الثقافي الاستعلائي في تلك الشخصية (زهرة).

إنَّ وقوع الإنسان تحت سلطة نسقية معينة هي التي تحدد اختياراته في تحديد الأنساق المضمرة في قراءة النصوص الأدبية[30]، فالوفاء ثقافة أخلاقية طالما إنماز بها الإنسان العربي اتجاه أشخاصاً وقعوا في مأزق ما مرَّ به، لكن عندما نقرأ عن شخصية (ستار) المهاجرة من الأهواز قسراً، ثم وجدت عائلة أشعرته بالحب، والدفء العائلي المتمثلة بعائلة (أبي قمر) الإنسان البدوي الشهم الذي أغدق (ستار) بوافر كرمه وحبه واعتبره فرداً من أفراد أسرته :

(إنَّ ستار الأهوازي بات حبلا من حبال خيمتي)[31]، إلا أن (ستار) لم يرق له المكوث طويلاً هناك، وكان يرى أن وجوده في صحراء (أبي قمر) ما هو إلا حلماً بائسا لم يسعَ يوماً لنيله :

(وجالت في أفكاره على الدوام فكرة أنه لم يهاجر لأجل هذا الحلم البائس)[32]، فهو يتطلع إلى حياة ثقافية ارقى من تلك الصحراوية :

(غالبا ما تشطح الأفكار به إلى تخيل أريكة فارهة في صالة استقبال عصرية، قريبا من جهاز التلفاز وهو يمضغ علكة، ويتجشأ المشروبات الغازية ...)[33]، وبذلك تقودنا تلك المعطيات الروائية أنَّ في شخصية (ستار) الأهوازية استعلاء ذاتي على عائلة (أبي قمر) البدوية . ولو تعمقنا أكثر في النصوص الروائية السابقة وجدنا أنّ هناك ثمة نسقاً مضمراً مخبوء خلف سرد النسق الاستعلائي للشخصية الابنة (زهرة)، وسرد النسق ذاته في الشخصية الأب (ستار)، وهو : إنَّ الفتاة ورثت من أبيها استعلاء الذات، والتمرد على نمطية الحياة الأسرية.

2. في هذا النسق يكون التعامل بفوقية مع الآخر من السلطات المركزية في الدولة اتجاه الأفراد اللاجئين إليها، بمعنى أنّه يجسد علاقة الدولة مع اللاجئين، ويقوم الراوي بوساطة تتبعه الأماكن التي سافرت إليها شخصية بطل الرواية (ستار) ، وتنقلاته من دولة إلى أخرى بسرد المواقف التي تعرض إليها في كل دولة مع سلطاتها المركزية . كانت البداية من دولة الخليج – لم يحدد الراوي دولة معينة، وإنما اكتفى بلفظة الخليج – رفضت تلك السلطات رفضاً قاطعاً من منحه الجنسية الخليجية على الرغم من علاقاته الطيبة مع معظم مسؤوليها، وكذلك رغم عمله شرطيا في مؤسساتها :

(في السجلات الرسمية، دُرِج تحت اسم (ستار) الثلاثي مباشرة معلومة تفيد بأنَّه مجهول الهوية، في إشارة إلى أنَّه بدون جنسية . غير أنّ على ارض الواقع اصطلحت الأعراف على تسمية أولئك المهاجرين، الذين عاشوا في هذا البلاد من غير جنسية، باسم (البدون) وهي تسمية صريحة جدا ومختصرة ..)[34].

وتستمر معاناة الشخصية في تشظيها، وعدم حصولها على الجنسية الذي سلبه حتى التفكير بالزواج وتكوين أسرة :

(... غير أنّني وحتى هذه اللحظة ما زلت أصنف في خانة (البدون)، لا اعتقد أنّه من اللائق أنْ أقود زوجةً إلى البيت ترفض المحاكم تسجيل زواجها . وليس من المعقول كذلك أنْ أنجب أطفالا يعيشون بلا هوية) [35] .

ويحاول (ستار) في الحصول عليها بوساطة صديقه النقيب (بشر) :

(كم تجاذبت مع أخي (بشر) الحديث عن ذلك، ورجوته أن يسعى لوضع حد له عن طريق معارفه الكبار، ولكن أن مثل هذا الموضوع فوق طاقته)[36].

وصار الحصول على جنسية خليجية أمنية صعبة المنال، وكانت حجر عثرة في طريق زواجه من الفتاة التي أحبها، والتي كانت هي الأخرى من (البدون) :

(كان أول مطب قطع عليه الطريق، ورج مشاعره، في لحظة استرخاء، جعلته يتلوى ... حينما رفضت المحاكم تسجيل زواجه رفضا قاطعا ...

أخبروه، احتراما لثوب الشرطة الذي يغطي بدنه، أنّه لا يمكنهم تمييز جنسيته، والتعرف إلى هويته الحقيقية لأنه لا يحمل أية مستمسكات ثبوتية، قانونية، وعليه لا تسمح المحاكم الشرعية بتسجيل رسمي للزواج أو الطلاق أو أي إجراء قانوني آخر يخص وقائع الحياة المهاجرين من أمثاله .) [37] .

وهكذا عاش (ستار) في كنف تلك الحكومة الذي عكف ليلاً، ونهاراً لخدمتها بإخلاص، وملاحقة الخارجين عن قانونها :

(مع تعاقب الأعوام لبث (ستار) منغمسا في عمله، وقد عمل في مراكز، وأماكن شتى، بعضها بعيد عن منزله، تطلب منه التغيب عن عائلته ...)[38].

وبعد تنامي الأحداث في قصة (ستار)، وتشظي هويته يبلغ الحدث ذروته حينما يرزق بطفلة، وتكون هي الأخرى مجهولة الهوية في ذلك البلد الخليجي , وتمنع من التسجيل في أروقة سجلاته الرسمية ، و المدرسية مع ذلك التفاني والإخلاص في خدمة الدولة الخليجية :

(حينما أزف موعد ذهاب (زهرة) إلى المدارس، استيقظ في أعماق (ستار) هوس البحث عن الجنسية الرسمية)[39].

إنّ في خلف جماليات السرد القصصي لحياة (ستار) في بلاد الخليج نستطيع رصد الطبقات الثقافية في المجتمع الخليجي، ولو أبحرنا أعمق في جماليات ذلك السرد وجدناه يشي بطبقتين : الأولى "طبقة ثقافية عليا"، وتتمثل بالسلطات المركزية، والثانية "الطبقة الدنيا" و الأضعف، وهي طبقة المهاجرين، وفي رحم ذلك التصنيف الطبقي الثقافي يولد نسق الاستعلاء السلطوي .

ولو يممنا أبصارنا صوب حياة الشخصية (ستار) في البلاد الغربية (هولندا) لوجدنا التصنيف الثقافي نفسه، فالسلطات الهولندية على الرغم من منح اللاجئين الهوية الهولندية؛ لكنّها سلبت منهم حريتهم في تعاملهم الأسري مع أبنائهم، بل وتعاملت معهم بفوقية محضه، فعندما ارتكبت الشخصية (زهرة) الفاحشة مع صديقها (شيشي)، أُصيب الوالد (ستار) بذعر شديد، ولم يجد سبيلاً ملائماً لاحتواء الموقف، والحد من تصرفات ابنته (زهرة) اللاأخلاقية :

(بعد برهة من جلوسنا أخبرني بأنه سيعود أدراجه ثانية إلى (دلفت) ويأتي بابنته إلى المنزل، لقد عزم على إيقافها عن دراستها التي لا نفع فيها ولا رجاء . لقد عزم على إيقافها عن دراستها ... ولكني حذرته بأن القوانين هنا دامغة، وقاطعة لا تجيز له التلاعب بمصير ابنته)[40]، كان موقف (ستار) حرجاً للغاية فهو لم يستطع السكوت عن سلوكيات ابنته المشينة، وتناسيها عاداتها العربية، ولا يستطيع إيقافها عن ذلك بسب السلطات الهولندية، وفي ذلك نسقية استعلائية سلطوية واضح اتجاه الأفراد . قد تكون تلك الحالة الثقافية حالة بسيطة بالنسبة لسكان البلاد الأصليين؛ لانهم نشأوا، وتربوا في وسط تلك الثقافات، ولكنّها كانت شديدة الوقع بالنسبة للاجئين العرب؛ وذلك بسبب ثقافتهم العربية التي لن تقبل بمثل تلك السلوكيات .

وعندما عزم (ستار) على تنفيذ قراره بشأن حجز ابنته، وعدم السماح لها بالخروج من البيت كانت السلطات له بالمرصاد بمساعدة الابنة نفسها وصديقها :

(في صباح اليوم الثاني جاءت الشرطة إلى البيت، يرافقهم الشاب الياباني الطلعة، وذلك الصديق الذي لا ينفصل عنه، وعلى الفور هرعوا لتحرير الفتاة من الاحتجاز، أمام أنظار حشد من الجيران بصورة أفزعت (أفراح) وحطمتها)[41]، تدخل السلطات لم ينته في أخذ (زهرة) أمام أنظار والدتها أ(فراح) لا بل عاملوا تلك الأم كما تعامل أي مجرمة محترفة في الاختطاف :

(أقبلت الشرطة على (زهرة) مثلما تقبل على فتاة مخطوفة من قبل مجرمين عتاة، في حين تعاملوا مع (أفراح) كامرأة لا تمت بأية صلة لها، كأنهم لم يعترفوا بأنها ابنتها ...

اقتادوا الفتاة و (أفراح) إلى مركز الشرطة .)[42]، في هذا السرد القصصي يسطع نسق الاستعلاء السلطوي بشكل واضح، فالمعاملة الفوقية من قبل الشرطة الهولندية اتجاه الأم ما هو إلا تجسيداً لذلك النسق الذي أضمر خلف ذلك الحدث السردي .

ويستمر الحدث في التنامي إذ تستمر الشرطة بحملة الاعتقال لتشمل الوالد (ستار) الذي كان موجوداً في خارج المنزل :

(هاتف الشرطة بعضهم بعضا من أجل القبض على (ستار) وإحضاره أيضا، وبالفعل لم تكد تمضي الدقائق حتى جاؤوا به مقيد اليدين من مقهى(التوليب الأصفر) ... وقف ضابط الشرطة، بطوله الفارع، أمام (ستار مباشرة)، وقد أوصد أي مجال للرؤيا من حوله، وألقى على مسامعه بخطاب فائض ... قال إن القانون لا يتساهل مع من يكبل حريات الآخرين ويجرح كرامتهم . وذكر (ستار) قائلا :

إنّ احتجازك الفتاة على هذا النحو لا يقل خطورة عن جريمة الاختطاف، اعلم جيداً إنّ مثل هذه الأعمال ستكلفك ثلاث سنوات في السجن على الأقل)[43] .

إن وجود الشخصية (ستار) في بلاد غربية لها ثقافة تختلف جذرياً عن الثقافة العربية أوقعته في هذا المأزق لذا كانت الأفضلية للسلطات صاحبة الأرض، كما كانت الأفضلية للسلطات الخليجية في منع منح الجنسية، وبين طيات النسق الاستعلائي السلطوي، والذاتي في الآن نفسه نلمح أنساقاً مضمرة عدة منها :

- إنَّ الإنسان العربي يفقد هيبته، وكرامته خارج حدود وطنه، وسيكون الأبناء السبب الرئيس في هدر تلك الكرامة .

- والنسق المضمر الآخر وجود ذات متحولة تتجسد في شخصية (زهرة)، وذوات منهزمة تتجسد في الشخصيتين (ستار – أفراح) .

المحور الثالث : الأنوثة والذكورة : –

إنَّ الأصل في التوزيع البشري الذي ينبني عليه المجتمع يبدأ من العلاقة الأصلية بين الذكر والأنثى، ومنهما تتفرع التنظيمات الاجتماعية الأخرى، وقد برز من تلك التنظيمات الأسرة كوحدة اجتماعية صغيرة يترأسها الذكر (الأب) الذي عد بمثابة (رئيساً) لتلك المنظومة بينما كانت الأنثى (الأم) بمثابة المعاون له.

شاعت هذه الحالة الثقافية في المجتمعات ؛بالاعتماد على ما يتميز به الذكر من خصوصيات معينة مثل القدرة على ترجيح العقل على الجانب العاطفي، والمشاعر، على عكس الأنثى التي تتمتع بطاقة فياضة من الأحاسيس والعاطفة، فضلا على ذلك امتلاك الذكر بنية داخلية، وقوة بدنية أكبر؛ ليستطيع تحمل أعباء العمل بالخارج ليوفر متطلبات الحياة الزوجية، إلا أنّ تلك الحالة الثقافية صابها الانشقاق، والتشظي خصوصاً في المجتمعات العربية، وبعد إرهاصات عدة رست على نوعين الأول منهما تعامل مع الأنثى بفوقية، وكان نتيجة هذا التعامل وخيمة جداً، وبين من تمسك بالتقسيم الفطري السليم، وحافظ على إنسانيته في تعامله مع الأنثى. وبوساطة الرحلة مع نصوص رواية " مثل زهرة مجففة "، وجدنا أنّ الكاتب حاول التطرق إلى هذه الحالة الثقافية، وما أصابها من انقسامات، والتي كانت على نسقين ثقافيين : –

1- نسق فوقية الذكورة / دونية الأنوثة :–

وهو نسق يهيمن به الذكر بامتياز، فالرجل يبيح لنفسه فعل ما يريد متى يريد حتى وإنْ كان في أمور محرمة في الشريعة الإسلامية بينما يعيب على الأنثى ذلك، والثقافة الجمعية العربية ساهمت في انتاج هذا النسق الذكوري المتعاظم، وولدت له ذاتاً متعالية ترى فوقيتها على الآخر \ الأنثى، وجاءت صناعة البطل الورقي (ستار) على وفق هذا النسق، إذ نجده يمارس تلك الفوقية خلال مسيرة حياته سواء أكان ذلك على مستوى تعامله مع أفراد أسرته، أو على مستوى علاقاته الاجتماعية المشبوهة، إذ تحكي الرواية تمرده على عائلته الأهوازية في أبسط الأشياء:

(... كلما قدموا له الشاي ثار على الفور، وصاح محتجاً :

إنَّه خفيف جداً مثل بول رضيع ...

ثم يرفع قدح الشاي إلى مستوى عينيه وينظر من خلاله وهو يردف قائلاً :

ها أنذا أرى (البصرة)، ذلك هو (الفاو) وتلك هي (السيبة) ...

أما إذا وجد الشاي ثقيلا بعض الشيء، فإنه يكظم غضبه ويقول بجفاء :

خذوه بعيداً، وزفتوا وجوهكم به ...)[44].

جعل الراوي من شخصية (ستار) شخصية سلطوية بالفطرة عبر إظهار جانباً من حياته أبان الشباب، فسرده لتلك الحوادث من يوميات البطل ليس سرداً فنياً يزخرف بها روايته، ويكسيها بطابع جمالي بل خبأ خلفه نسقاً مضمراً يتمثل بتعالي شخصية البطل الذكورية، ويستمر الراوي في رسم ملامح صورة بطله الذكورية بتصوير جانباً أخراً من حياته يتجسد في إباحيته، وشرعنة هذا الأمر لنفسه بينما يحرمه على الآخر \ الأنثى فعندما وصل به المطاف إلى بلاد الخليج حول بيته إلى مرتعٍ للشياطين :

(تحول هذا البيت إلى وكر الملذات، وقد فاضت في أركانه روح الشباب، وأمسى مرتع اللهو والقصف .

خاض في جحيم ملذاته نفر من الأصدقاء، الذين اعتادوا التوافد عليه بين وقت وآخر.)[45].

حينما جاء الإسلام محللاً بعض القضايا، ومحرماً أخرى فإنَّه لم يخص بذلك جنساً دون آخر، وإنما جاءت أحكامه واضحة تشمل الجنسين الذكر والأنثى، ولكنَّ في العقود الأخيرة ظهرت ثقافة مجتمعية تبيح للرجل فعل المحرمات بينما يكون ذلك محرماً على الأنثى، وباتفاق ثقافي بين أفراد المجتمع العربي كافة، وتكاد أغلب المؤسسات الثقافية تبارك ذلك، تلك الملامح النسقية الثقافية الفوقية وجدنا آثارها في شخصية (ستار) الشبابية لكنّه بعدما كون أسرة نراه يُنكر ذلك على ابنته (زهرة) :

(هل يعقل أحد أن أعيش أنا وأترك ابنتي تتخبط في آثامها أمام سمعي وبصري ؟ .. سنجاهد من أجل إبعادها عن أولئك المخنثين . المهم الآن أن نسيطر على سلوكها ...)[46]، يركز الراوي على حياة (ستار) وممارسته الفواحش مع أصدقائه، ثم يعيد صياغة ذاك العبث المحرم الشبابي، ويسقطه على شخصية الابنة (زهرة)، وكأن التاريخ يعيد نفسه، وبذلك تكون هناك ثمة أنساق ثقافية مضمرة خلف تلك المتون الروائية إضافة إلى تجسيد فوقية الذكورة، ودونية الأنوثة، ومن تلك الانساق المضمرة :

إذا كنت تريد الحفاظ على شرفك العائلي فعليك أولا الحفاظ على شرف العائلات الأُخرى، وإنّ في الالتزام بحلال الشريعة الإسلامية، وحرامها خلاصاً لصون العائلة والأولاد، والابتعاد عن حبائل، ومصائد الشياطين .

هذا التغيير النسقي الثقافي شمل الجانب العاطفي أيضاً فالرجل يبيح لنفسه الحب بينما يكون ذلك محرماً على الآخر \المرأة فـ (ستار) الشخصية العاشقة تتنكر العشق، وترى فيه عاراً في ضدية ثنائية يبنها الراوي بوساطة شخصيات "الأب"، "والبنت " :

(... حدق بها في وله ورعدة، بنظرة تقول أنني أحببتكِ أكثر مما تتصورين ...

في وقت قريب تجدد لقاء الحبيبين ...)[47] .

(في هذه الأثناء بلغت شكوك (ستار) حدها الأقصى . طفق يراقب سلوك ابنته في البيت، في كل حركاتها وسكناتها، وكان يغلي من الغيض ... وقد أفضى عما يجول في خاطره إلى (أفراح) بقوله :

أقسم لك بأغلظ الأيمان أن ابنتك عاشقة ...)[48]

هذه النصوص الروائية تحمل نسقية تعالي الذكورة على الأنوثة بامتياز، فالأب المؤسس لهذا النص يُعنف بشكل صارم ابنته التي فعلت ما فعله هو بشبابه .

وقد تمارس تلك الثقافة النسقية في آن واحد بمعنى آخر يظهر النسق فوقية الذكورة \ دونية الأنوثة عند الشخص في الوقت نفسه فهو من جهة يقبح ما تفعله الأنثى من مخالفات دينية، واجتماعية، بينما نراه هو غارقا في تلك المعاصي وهذا ما جسده الكاتب " محمود يعقوب " في شخصية "باسم العراقي" :

(كان أكثر من انشغل بنقل أخبار (زهرة) من رواد المقهى هو (باسم العراقي)، ذو الصلعة المشرفة . كان هذا الرجل يزف الأقاويل زفا كأنه يزف عروسا . لقد نقل عنها الكثير مما كانت تقوله لصديقاتها فهي تقول، حسب ما يدعي :

الجميع يتحدث عن جسدي ويغفلون روحي ... لماذا يتوجب علينا أن نخضع لإرادة أناس عتيقي الطراز ... إنني أحب والدي، ولا أفكر بمعصيتهما ... ولكن بالنسبة لعواطفي فهي شيء آخر .. شيء يخصني وحدي فقط...)[49].

إنَّ تلك الشخصية التي جعلت من أخبار (زهرة) شغلها الشاغل تنقل، وتحرق قلب والدها عبر الهمس بسيرتها كانت تمارس ما عكفت عليه تلك الفتاة في الزمان وفي المكان نفسه وهو " مقهى التوليب " :

(حينما رفعت بصري جانباً اصطدم مباشرة بعيني (باسم العراقي) المتوهجتين ... ينتقل من موضع إلى آخر في المقهى من دون أن يجلس ويتحدث مع أحد ...

بعد دقائق تيسر لي أن أكشف أنّه يغازل نادلة صغيرة العمر، من نادلات المقهى . كان يعاكسها ويحدثها باقتضاب ....

كان باستطاعتي أن استوقف (باسم) وأذكره بحملاته الرقابية المتوالية على سلوك (زهرة) وأفعالها، تلك الحملات المشفوعة باستيائه وسخطه العارمين ..

إن هؤلاء يتعاملون مع أمور من هذا النوع تعاملا شرقيا بائسا، وبنوع خاص من نظريات الحلال والحرام :

ما يفعله الذكور حلال ..

ما تفعله الإناث حرام ..)[50].

كانت مهمة الراوي في سرد تلك الأحداث إظهار الحالة النسقية الثقافية المتعالية التي إنمازت بها الشخصية العربية بصورة عامة حتى على حساب الشريعة الإسلامية الحقة .

2ـ نسق الإنسانية \ التساوي :

وهنا تظهر ثقافة المساواة بين الجنسين فالإنسان يمكن أن يخطأ ويصيب سواء أكان ذكراً أم أنثى، ويظهر الذكر جانبه الإنساني، وتعاطفه مع الآخر \ الأنثى، وبوساطة تمظهر سرد الإنسانية في رواية " مثل زهرة مجففة "، نستلم رسالة ثقافية، وهي تقبل الذكر لأخطاء الأنثى بعقلانية أكثر؛ وذلك نظراً للظروف الاجتماعية والبيئية التي تحيط بتلك الأنثى بل واعتبار تلك الأخطاء نتيجة طبيعية لتولدها نتيجة تلاقح ثقافة المجتمع مع ميول الشخصية الأنثوية، وهذا ما مثله الراوي في شخصية (سميح الفلسطيني)، الصديق المقرب لبطل الرواية (ستار):

(إن كان الحب عيباً، ومحرماً في بلاد العرب، فإنّه هدف أسمى لكل شاب وشابة في هذه البلدان، ويعد من الحسنات التي يتبجح بها الإنسان، وما دام المرء يحيى هنا عليه أن يحب . لا خوف ولا نقيصة إذا هفت (زهرة) إلى أحضان الحب، مهما أثيرت حول ذلك الأقاويل والأراجيف، لم يكن هذا الحب في يوم من الأيام ذنبا ولا خطيئة)[51].

وتتمركز أغلب الحوارات التي سردها الراوي على لسان تلك الشخصية الفلسطينية (سميح)على ذات النسق الإنساني الداعي إلى المساواة بين الذكر والأنثى :

(نصحته بعدم التحسس من أحاديث أبناء الجالية العربية، الذين قدموا إلى هولندا وهم متمسكون بمبدأ الذكورية وحسب . إن ذكورهم يسرعون بلهفة للانغماس في الحياة الغربية الباذخة، يغوون النساء، ويعشقونهن، وينفقون جل أموالهم وأو قاتهم في اللهاث خلف ظلالهن . في الوقت الذي يضعون فيه القيود في أقدام نسائهم، ويمنعونهن من السعي إلى عالم الذكور منعا محرما ..

أخبرته بأن (زهرة) لو كانت مذنبة بحسب تصوراته، فالذنب ليس ذنبها في الأساس، إنما ذنبه حينما انتزعها من واقعها الشرقي وجاء بها إلى دولة غربية، وأطلقها لتعيش حياة أخرى تختلف كثيرا عن حياة الشرق .

قلت له دعْ الأمور في سبيلها، ونم قرير العين ... عليك تقبل أنماط العلاقات الاجتماعية مهما بدت غريبة أو محرمة بالنسبة لك . لا مفر لابنتك من أن تحب وتهوى، شأنها شأن الفتيات الأخريات ...)[52].

إنَّ الدال النسقي الثقافي الذي طغى على ذلك السرد هو النظرة الإنسانية للشخصية (سميح)إزاء الأخطاء السلوكية التي كانت تمارسها (زهرة) ، وهناك ثمة نسق مضمر في طيات تلك المتون السردية، إذ فيه ترجمة واضحة للذات العربية التي تتخبط في قراراتها ، وسطحيتها ، وعدم جديتها في اتخاذ القرارات المصيرية للأسرة، مما يحولها إلى ذات منهزمة أمام العقبات التي تواجهها فيما انتقلت من ثقافة إلى أخرى.

عندما نتبع سير الأحداث حول سلوكيات (زهرة) في البلاد الغربية نجد حرص الراوي في تقديم شخصية (سميح الفلسطيني) على أنّه المثقف الذي فهم مجريات الأمور وتحولاتها بتحول البيئات الثقافية:

(أنت لست اليوم في الخليج، ولا في النجف، دع الفتاة وشأنها، دعوها تعيش حياتها كما تعيش الفتيات الأخريات، لا تلهثوا بالركض خلفها، ولا تثيروا زوبعة حولها، تجذب إليكم ألسن الناس)[53].

نلحظ أنّ الكاتب اتكأ في بنائه السردي على المنطق النسقي في تجسيد نسق النظرة الإنسانية للأنثى؛ وذلك بوساطة لعبة المكاشفة بين اسم الشخصية (سميح)، وأفعاله فالاسم يترجم الأفعال الإنسانية السمحة التي انمازت بها تلك الشخصية .

المحور الرابع : نسق العنف :

عُدت الرواية واحدة من الأجناس الأدبية التي تتيح للأديب ترجمة الواقع المعاش، وما يحصل فيه من إرهاصات، ومشاكل اجتماعية متأزمة، لذا صارت العوالم الروائية مساحات تُظهر أنساق العنف التي تخلل المشاكل الأسرية، ومدى تفاوتها، وقد تجسد هذا النسق في رواية " مثل زهرة مجففة " عبر الأنواع الآتية :-

1ـ العنف الجسدي :- ونقصد بالعنف هنا التعامل بقسوة مع الآخر لدرجة الإيذاء الجسدي، ويتولد هذا النوع من العنف نتيجة انعكاسات البيئة التي تربى بها الفرد وألقت ظلال عاداتها وتقاليدها عليه، فلا يستطيع معها من التحرر منها حتى وإنْ غادر إلى بيئة أخرى أكثر تحرراً، فبطل الرواية (ستار) تربى في بيئة محافظة تحافظ فيها البنت على عذريتها حتى الزواج، وبخلافه تستحق الفتاة القتل، وهذا ما تجسد على أروقة الرواية حين فقدت ابنته (زهرة) عذريتها دون زواج، وإنْ كانت في مكان تحكمه عادات، وتقاليد غير التي نشأ وتربى عليها والدها : (... كانت (أفراح) تقرأ في عينيه ذلك التصميم البدوي الذي لا ينثني، على التخلص من (زهرة) وقبر ذكراها إلى الأبد)[54] . حاولت الأم جاهدة أن تغيير من تفكير الوالد واستدرار عطفه الأبوي لكن دون جدوى : (لا فائدة يا (أفراح) .. لا فائدة، إنها أصبع عائب، والأصبع العائب لا ينفع معه شيء غير البتر .

ألا يوجد في رأسك غير أفكار الدم يا (ستار) ؟ ..

إذا لم أقتلها سأقتل نفسي لا محالة، لا يمكنني أن أعيش مغطى بتراب العار...)[55].

ويقدم الوالد على القتل ابنته الوحيدة بعد إن استدرجها إلى بيته في النجف : (في جوف الليل، وفي الصمت الراسخ الذي لا يقطعه سوى نباح بعيد، تسلل (ستار) بفأسه إلى غرفة (زهرة) التي كان صوت غطيطها يتردد عبر باب غرفتها . حمل الفأس، وفتح باب الغرفة، ودلفها بفؤاد متحجر وعينين ضائعتين. وفوق قسمات وجهه كانت تعبر عشائر ثائرة، وقرى داوية، وهتافات غوغاء، غلله العرق وجعل يختطف أنفاسه .

وقف فوق رأسها من دون تردد ... رفع فأسه وهشم رأسها بحركات متوترة وسريعة من ذراعه القوي !..)[56].

لم يكن (ستار الحافي) يكره أبنته الوحيد لكنه لم يستطع أن يغفر ما اقترفت بحق نفسها فكان الموت خياره الوحيد : (فلتغفري لي يا (زهرة)، أنت اخترت الموت لا أنا لا..

هل تعلمين أنني لم أقتلك بل قتلت نفسي ؟ .. إياك أن تتوهمي بأنني أكرهك، أبدا .. أبدا، لا

أحد في هذه الدنيا يمكن أن يحبك بقدر حبي يا زهرتي)[57]. تصرف الأب تصرفاً أنانياً حين فكر أن ينتشل فتاة من بيئتها، ووضعها في بيئة تختلف عن سابقتها باحثا عن راحته الشخصية، أنانياً حين ترك دوره الأبوي في متابعة فتاة في بيئة كل الأمور مباحة فيها ليتسكع في المقاهي والشوارع الهولندية، أنانيا حين لم يحمل نفسه مسؤولية التقصير فما وصلت له البنت فما هو إلا نتيجة لما فعله في النساء في مقتبل عمره إذ لم يحافظ على أعراض الناس . وبذلك تجسد نسق العنف في لغة الراوي بطريقة ثقافية تستند إلى هوية المتكلم، وتداعيات أفكاره ومرجعياته الاجتماعية .

2. العنف السيكولوجي : يأتي هذا العنف النسقي عندما تكون الشخصية منهزمة نفسياً، ولا تمتلك من الحلول التكتيكة للمشاكل التي تواجهها سوى تهديد الآخر، وقد يكون وسيلة من وسائل التأديب والعقوبة[58]، ووجود هكذا نسق في رواية " مثل زهرة مجففة "جاء تجسيداً للثقافات التي تحلى بها أبطال الرواية، وكيفية تعاملهم مع الخطيئة، والمشاكل العاطفية، فقد ورد في بداية الرواية أن ثمة عائلة هُتك شرفها من قبل ابن أخ (ستار الحايف) فما كان من تللك العائلة إلا تهجير عائلة الحايف بأكملها وإلا قُتلوا : (... فأنا مجرد رسول مبعوث إليك، جئت لأبلغك هذا الكلام وأرحل، أرجو أن تتفهمه جيدا، إنَّ ابن أخيك ألحق أذى بالغا بعائلتنا .. أذى لا يمكن محوه، حين صبغ وجوهنا بالسواد، وهتك شرف إحدى بناتنا ...كلنا يدرك أن هذه الإساءات يكون الناموس العشائري هو الفيصل الأول والأخير فيها، وقد جلسنا جميعا إلى الحق . وتقرر إجلاء عائلتكم من (الأهواز) في نهاية الأمر)[59]، فالمجتمع وارتباط أفراده بقانون يحكم سلوكه له دور في إشاعة نسقاً ثقافياً يكون حلاً للخروج من مأزق يمس شرف نسائهم من دون ضرر ولا ضرار، وذلك عبر تهجير العائلة المتعدية برمتها .

ويبقى هذا النسق الثقافي حاضراً مترسخاً في نفوس بعض الأفراد يحاولون به أنْ يدرؤوا به خطراً محيطاً بهم كما فعلت والدة (زهرة) معها عندما مرت وهي في مرحلة المراهقة بتجربة الحب : (في ظهيرة يوم قائظ، أيقظ

(أفراح) من قيلولتها صوت صرير الباب الحديدي الخارجي لمنزلهم وهو يُفتح . استرعى انتباهها في الحال صوت ذكوري هامس ... تسللت من دون أية ضجة إلى حديقة الدار لتفاجأ بذلك الفتى الأسمر البدين وهو يتبادل الهمسات مع ابنتها المتوارية خلف الباب ... جذبت ذراع ابنتها وقادتها إلى الداخل ... أجلستها بين يديها في غرفتها، كانت نظراتها شائكة ...إنك ما زلت صغيرة ... والحب بالنسبة لك ما هو إلا لهو ولعب، سيجلب لك ولنا العار والسوء، ويدمر حياتك وحياتنا معا .إن النتيجة النهائية، إذا لم تقلعي عنه، هو دفنك هنا في هذا البحر)[60] . ويبدو أن النسق الثقافي للعنف متمكن من ذهنية الشخصية (زهرة) دون وعي ؛لأنَّ قولها (دفنك هنا)لا يناسب المقام، ولكن تداعيات النسق العشائري العربي الرافض للحب والعلاقات العاطفية كونها مصدرا للعار؛ ولهذا لم تكتفِ بتهديد بنتها، وإنما لحقت ذلك الشاب إلى مكان عمله وقامت بتهديده أيضا : (في صباح اليوم التالي سارعت إلى صاحب المحل لتواجهه بنظراتها الغاضبة، التي يتطاير شعاعها عبر نقابها البدوي ... وفي نهاية زيارتها القصيرة نقلت إلى الرجل إنذار عشيرتها له، وكأنّها مكلفة بذلك، بإهراق الدم إذا ما تكرر الأمر... إنَّ دمك ودم صبيك السائب في الشوارع هما من يغسل الآثام إذا ما تكررت أفعاله الشائنة مرة ثانية)[61]، وبذلك بدت عواطف الشخصية ذات تداعيات سيكولوجية عنيفة، وهو بذلك يجسد نسقاً مضمراً للعنف له تمثلاته الخارجية بعبارات العنف الصارمة المعبرة عن تداعيات نفسية خائفة على ابنتها من أنْ يطبق بحقها حكم القتل إذا ما علم والدها بذلك .

3ـالعنف النفسي: يكون هذا النسق مضمراً في كوامن الشخصية، ويقوم بتوجيه للآخر عبر مجموعة من التصرفات مما يسبب الخوف له، وفقدان الثقة، وفقدان القدرة على العمل، والشعور بالعجز[62]، ويتوسل هذا النسق بالسرد ليعلن رفضه للنسق المهيمن، ويتجسد عندما يتواجد فحلان يريد كل واحد الغلبة لنفسه[63]، فيتقابل (ستار) مع (شيشي) الشاب الذي احب (زهرة) وكان سبباً رئيساً في قتلها بعد سلبه عذريتها بطريقة تنافي العادات التي انحدرت منها، وبعد عجزه من الوصول إلى دليل يُثبت ما أقدم عليه الوالد ليقدمه إلى السلطات لتدينه يقوم بإجراء طقوس يُعمل بها في البلاد الغربية عند وفاة أحدهم : (كان الانطباع الجاد يندلق على وجه (شيشي) وقد أثقلت التصورات والأوهام الكثيرة أفكاره ...منظر أصدقائه الذين خيم عليهم شبح الحداد ... يلتقون ... في أوقات الأصيل، وأيام السبت ... وهم يطاردون شبح عبير (زهرة) ... لكنهم في تلك الأيام التي كروا فيها على هذه المدينة وجدوا أنفسهم في دوامة الغموض الشرقي ... وكان (شيشي) غالبا ما يظهر عابساً والغيظ يفترسه، إذ كان يشعر بأن البدوي الجوال انتصر عليه في هذه الجولة انتصاراً حاسماً...

في ليلة صافية الأديم، مقمرة، ظهرت سياراتهم الرياضية أمام منزل (ستار) ذي الدرجات السبع .كانت (أفراح) في الغرفة العلوية المطلة على الشارع ... ألقت بنظرها إلى الشارع . أذهلتها رؤية ذلك الشاب ...لحظت، في نفس الوقت ترجّل فتى وفتاة كانا بصحبته ...

على جناح السرعة نقلو رزما من مؤخرة السيارة إلى باب المنزل . فضّوا تلك الرزم، وأخذوا يرصفون حاجات لم يتيسر لها رؤيتها بوضوح على درجات السلم ... أوقدوا الكثير من الشموع، وأعواد الند، ثم رحلوا.

هبطت (أفراح) إلى الدور الأرضي ... تفاجأت حالما فتحت الباب بالسلم مغطّى من أوله إلى آخره بأكاليل الأزهار، والشموع، وأعواد البخور، وعطر المسك الفواح، وثمة شال حريري أسود ملتوٍ، ينزل من الدرجة السابعة إلى الدرجة الرابعة بطريقة بالغة الميوعة ... وفوقه وُضِعَ إناء خزفي مليء بالبذور التي تُطعم بها طيور الحب ... وفوق صفحة الإناء لُصقت قصاصة ورق، كُتِبَ عليها قول من أقوال أرسطو، بأحرف عربية ركيكة (الموت أكثر الأشياء فظاعة) ...

هالها هذا الطقس المأتمي...وقفت تتأمل الشموع ...وفي ما يشبه الحياء أغلقت الباب ووقفت خلفه تنحب بحرقة ...)[64]. إنّ المبدأ الذي بُني عليه هذا المشهد النسقي من العنف هو زرع الخوف، والغضب، والإحساس بالضعف في نفس الفحل الآخر (ستار)، وراح المشهد يرسم الطريق لهذه النهاية النسقية عندما سمع (ستار) بكاء زوجته، وخرج يستكشف ماذا جرى : (... ليجد نفسه أمام تلك الأشياء الناعمة، البالغة الرقة والأسى ...أحس أنهم استضعفوه ... هبط السلم ثائرا، وهو يطفئ البخور ... ويقلبها فوق بعضها في غاية العصبية...)[65] .

وتأسيا على ذلك جاءت تلك العوالم الروائية لتكشف جملاً ثقافية مكتنزة بدلالة العنف النسقية، وعلى الأصعدة الجسدية، والسيكولوجية، والنفسية .

الخاتمة :

قادت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج كان من أهمها :-

1 ـ كشفت المتن الروائية في رواية " مثل زهرة مجففة " قيد المعالجة والتحليل في ضوء الأنساق الثقافية عن حقيقة مفادها ضرورة إعادة النظر في تلك الأنساق؛ لإستيعاب أكبر قدر من تلك العوالم الروائية .

2 ـ تنوعت الأنساق الثقافية في الرواية ما بين تهميش الثقافة العربية الإسلامية، و والنسق الإستعلائي، والأنوثة والذكورة، ونسق العنف .

3 ـ نُسجت الحبكات الروائية، واختزلت رؤية الروائي للعالم، فجاءت النصوص ذات توجهات ثقافية باعتبارها أحداثاً ثقافية جمالية تمثل الصراع الإنساني، وتجاذباته، وتناقضاته، وتأثير المجتمع، والبيئة التي يحيا فيها على اتخاذ قرارات مصيرية .

مصادر البحث:–

- أعمال العنف في روايات ليل وقضبان لنجيب الكيلاني (دراسة البنيوية التوليدية)، مقالات أكاديمية حول العنف النفسي في الرواية The Arbic Novel
- ثقافة العنف ودلالاتها النسقية في رواية حائط المبكى (مقال)، عز الدين جلاوجي، المجلة الثقافية الجزائرية، thakafamag.com.
- حفريات المعرفة، ميشيل فوكو، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، ط2، 1987.
- حوار الأنساق في الخطاب النقدي المعاصر قراءة في أنظمة التواصل (أطروحة دكتوراه)، الياسمين بن تومي، كلية الآداب واللغات، جامعة سطيف، 2012- 2013.
- الدراسات الثقافية، زيودين ساردار، بورين فان لون، ترجمة وفاء عبد القادر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003 م.
- الشعر العربي على سرير بركوست قراءة نقدية في نظرية النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي، الدكتور طارق بوحالة، مركز الكتاب الأكاديمي، (د . ت) .
- عقدة الاستعلاء (مقال) ويكيبيديا، ar.wikipedia.org .
- علم الاجتماع الثقافي ومشكلات الشخصية في البناء الاجتماعي، قباري مُحَمَّد إسماعيل، منشأة دار المعارف، الإسكندرية- مصر، (د. ت) .
- القراءة النسقية ((سلطة البنية ووهم المحايثة))، أحمد يوسف، الدار العربية للعلوم ومنشورات الاختلاف، الجزائر وبيروت، ط1، 2007م .
- لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، د. عبد الفتاح أحمد يوسف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، 2010م .
- مثل زهرة مجففة، محمود يعقوب، دار الضياء للطباعة، العراق – النجف، ط1، 1916م .
- محاضرات في النقد الأدبي المعاصر، يوسف وغليسي، منشورات جامعة منتوري قسنطينة، 2004-2005.
- النظرية الإجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، أيان كريب، ترجمة مُحَمَّد حسين غلوم .
- النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية، عبدالله الغذامي، المركز الثقافي العربي، المملكة المغربية – الدار البيضاء، ط 3، 2005م.
- نقد ثقافي أم نقد أدبي، عبد الله الغذامي، عبد النبي اصطيف، دار الفكر، دمشق، ط1، 2004 م .

الحواشي : .

([1])حوار الأنساق في الخطاب النقدي المعاصر قراءة في أنظمة التواصل (أطروحة دكتوراه)، الياسمين بن تومي، كلية الآداب واللغات، جامعة سطيف، 2012- 2013، 28.

([2])الدراسات الثقافية، زيودين ساردار، بورين فان لون، ترجمة وفاء عبد القادر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003 م، 8.

([3])علم الاجتماع الثقافي ومشكلات الشخصية في البناء الاجتماعي، قباري مُحَمَّد إسماعيل، منشأة دار المعارف، الإسكندرية- مصر، (د. ت)، 16.

([4]) ينظر : محاضرات في النقد الأدبي المعاصر، يوسف وغليسي، منشورات جامعة منتوري قسنطينة، 2004- 2005، 44.

([5]) ينظر النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية، عبدالله الغذامي، 76.

([6])م .ن، 78.

([7])ينظر لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، د. عبد الفتاح أحمد يوسف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، 2010م، 151.

([8])النظرية الإجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، أيان كريب، ترجمة مُحَمَّد حسين غلوم، 87.

([9]) ينظر م .ن، والصفحة نفسها

([10]) ينظر حفريات المعرفة، ميشيل فوكو، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، ط2، 1987، 69.

([11]) مثل زهرة مجففة، محمود يعقوب، دار الضياء للطباعة، العراق – النجف، ط1، 1916م، 13.

([12])م .ن، 16.

([13]) م، ن، 59.

([14]) م .ن 60.

([15])م .ن، 283.

([16])م . ن، 185- 186.

([17])م . ن، 299.

([18]) ينظر الشعر العربي على سرير بركوست قراءة نقدية في نظرية النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي، الدكتور طارق بوحالة، مركز الكتاب الأكاديمي، (د . ت)، 109.

([19]) ينظر القراءة النسقية ((سلطة البنية ووهم المحايثة))، أحمد يوسف، الدار العربية للعلوم ومنشورات الاختلاف، الجزائر وبيروت، ط1، 2007م، 122.

([20]) الرواية : 82.

([21])نقد ثقافي أم نقد أدبي، عبد الله الغذامي، عبد النبي اصطيف، دار الفكر، دمشق، ط1، 2004 م، 30.

([22]) الرواية، 173.

([23])م . ن، 193.

([24]) عقدة الاستعلاء (مقال) ويكيبيديا، ar.wikipedia.org

([25]) ينظر النقد الثقافي، 79.

([26]) الرواية، 155.

([27])م . ن، 181.

([28])م . ن، 285.

([29])م , ن، 197-201.

([30])ينظر النقد الثقافي، 167.

([31]) الرواية، 43.

([32])م، ن، 43.

([33]) م , ن، ق47.

([34])م . ن، 56.

([35]) م، ن، 64.

([36]) م . ن، 65.

([37])م . ن، 79.

([38]) م . ن، 98.

([39]) م . ن، والصفحة نفسها .

([40])م . ن، 303.

([41])م . ن، 198.

([42]) م . ن، والصفحة نفسها .

([43]) م . ن، 199.

([44]) م . ن، 25.

([45]) م . ن، 59.

([46]) م . ن، 305.

([47]) م . ن، 73.

([48]) م . ن، 182.

([49]) م . ن، 226.

([50]) م . ن، 289.

([51])م . ن، 295.

([52]) م . ن، 296.

([53]) م . ن، 225.

([54])الرواية : 229.

([55]) م. ن والصفحة نفسها .

([56])م . ن: 243.

([57]) م. ن : 245.

([58])ينظر ثقافة العنف ودلالاتها النسقية في رواية حائط المبكى (مقال)، عز الدين جلاوجي، المجلة الثقافية الجزائرية، thakafamag.com.

([59])الرواية : 16.

([60]) م . ن : 134.

([61]) م . ن : 140.

([62])ينظر أعمال العنف في روايات ليل وقضبان لنجيب الكيلاني (دراسة البنيوية التوليدية)، مقالات أكاديمية حول العنف النفسي في الرواية The Novel Arbic: 26 .

([63]) ينظر النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، 215.

([64])الرواية : 258.

([65])م .ن : 25